يَوْمِيَاتْ

مدَارِسَ اَلْحُبْ وَاَلْجَمَالْ وَاَلْحُرِيةِ

الكتاب : يوميات مدارس الحب والجمال والحرية

الكاتب : عَلِي عَبْدَ اَلْفَتَاَحْ

الطبعة : ٢٠١٥

الناشر : وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكو ر- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ ــ ٣٥٨٦٧٥٧٦ ــ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣
http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة : لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أوتخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

عبد الفتاح، علي

يوميات مدارس الحب والجمال والحرية – علي عبد الفتاح – الجيزة

وكالة الصحافة العربية

تدمك : ٥– ٧٠٢٧ – ١٩ – ٩٧٧

.. ص ، .. سم

أ. العنوان **رقم الإيداع / ١٠٤١٣**

يَوْمِيَاتْ

مدَارِسَ اَلْحُبْ وَاَلْجَمَالْ وَاَلْحُرِيةِ

عَلِي عَبْدَ اَلْفَتَاحْ

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

(الرحمن عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلقَ الإنسان علمه البيان)

(الرحمن:٤)

إهداء

إلى أصدقائي وزملائي المدرسين
الذين عاشوا معي أروع تجربة في الحياة
داخل فصول مدارس الحب والجمال والحرية

مدخل

إلى تلاميذي وطلابي الذين أصبحوا اليوم
رجالاً ونساءً يزرعون أرض مصر
بالحب والجمال والحرية..

أقوال عاشت

- مهمة المعلم أن يزرع الصحراء.. لا أن يقتلع الحشائش الضارة من الحقول. (فيكتور هوجو)
- التعاطف مع الطلاب هو سر نجاح المعلم. (ابن خلدون)
- معلم بدون ثقافة جادة إفساد للمتعلمين. (العقاد)
- نحن نتعلم لنغير أفكارنا وسلوكنا وليس لشغل وظائف. (أنيس منصور)
- يجب أن تكون المدرسة حصناً لحماية الطلاب من فساد الواقع. (ثوراندیك)
- المدرسة هي مصنع إعداد القادة والمبدعين والعلماء. (أحمد زويل)
- من لا يتفوق على معلمه يكن تلميذاً تافهاً. (ليوناردو دافنشي)
- السر في التعليم احترام التلميذ. (أوسكار وايلد)
- التربية العاطفية بداية ليقظة الفكر والوعي. (جوستاف فلوبير)
- كرامة المعلم قبل كل شيء. (مصطفى محمود)
- المعلم فنان مسكون بشهوة المعرفة. (شيللي)
- التعلم أن ترقي بالفكر والشعور وتغير العالم. (شكسبير)

- التعليم كالماء والهواء حق لكل إنسان. (طه حسين)
- كلما تَعلم فرداً تَحرر آلاف من عبيد الجهل. (توفيق الحكيم)
- ليس المهم أن نتعلم ولكن أن نعيش حياة العلم. (روسو)
- كُتب على المعلم تجربة العناء ليكون المثل الأعلى. (أرسطو)
- أجمل أيام حياتي عندما كنت تلميذاً. (بير كورى)
- جميع أساتذتي بالمدرسة اتهموني بالغباء. (توماس إديسون)
- علم دون إيمان يخلق متعلم بلا هوية. (الإمام الشافعي)
- الحب والجمال والحرية قيم المدرسة المثالية. (أفلاطون)
- تعلمت عشق الرسم من أستاذي بالمدرسة. (بيكاسو)
- حفظي للقرآن الكريم جعلني متميزاً بالمدرسة. (أحمد أمين)
- المدارس لا تعلم ولكن ترشدك إلى العلم. (دستويفسكي)

مقدمة

تعلمتُ فن الحياة والإبداع.. في مدارس الحُب والجمال والحرية..عشتُ في عالمِ الأدب.. وعشقتُ صفحات الكتب.. وكم من ليالٍ غفوت على صفحاتِ كتاب.. وقلبي في نهرِ الأحلام يتدفق وينساب.. وشاهدتني أركض في حدائق خضراء.. وأُغني للقمر والنجوم.. وأعانق السماء.

رأيتني أحتضن نهر النيل.. وأحفر آثاري فوق جبال المستحيل.. أبكي عشقاً فوق الضفاف.. تدثرني أوراق الشجر وأغصان الصفصاف.. تصادقني فراشات حائرة.. تطاردني سنابل ثائرة.. وينتظرني الثوار في جزر الوعد والميعاد.. والوطن في زهو المجد قد عاد..

لنجلس سويعات في ظلال الشجر.. نحاور الحنين مع شفاه القمر.. وننام تحت أفق السماء.. في موعد مع القدر.

درستُ في جامعات الإنسانية.. وجلست في فصول الحريـــة.. وحطمت أصفادي وقيودي.. وأعلنت الرفض لقهـــر وجـــودي.. وتعلمت كيف تتشكل الطفولة البيضاء.. وتلمست روحي آفـــاق السماء.. قرأتُ في كتاب التاريخ عن فنون التحـــدي والنـــضال.. وكيف أغازل الزهر.. وأرسم الشروق في عيون الأطفال.

تفوقتُ في علم الذوق.. وأبحرتُ في كتب الأحاسيس والمشاعر المرهفة.. درستُ في كلية الحب والإبداع.. كيف أعبر عن مشاعري كما الغزلان في الصحراء.. ونباتات القمح في الحقول الخضراء.

درست علم الاحترام.. والأدب الجميل.. والآداب الرائعـــة.. تعلمتُ كيف أتحدي الخَلق بمعالي الخُلق.. تَعلمتُ كيف أشعر بوجع الورد إذا حان اغتيال أوراقه.. وعرفت معنى عشق الوطن وتقديس أشواقه.

وفي علم الرقة.. وفصول الدقة.. وفنون التعبير.. تعلمتُ كيف أحول الكلمات إلى شموع ومصابيح.. ودروب من نور.. وفي كتب التعاطف الإنساني درست كيف للقلب أن يبكي لدموع الأطفال.. وكيف للروح أن تصرخ في رفض القهر والجشع.. وإبادة الأبرياء..

تعلمت فن الحوار في أبواب البلاغة والبيان.. وروعة الإعجاز الساحر في آيات القرآن.. تعلمت كيف أتحول إلى وردة وأغنيـــة.. وقصيدة حب دون انتهاء.

وكتبت يومياتي بدم العذاب.. وقهر الصعاب.. وتحدي ريـــاح شريرة.. وأوهام تحاول اقتلاع طمـــوحي.. وأحلامـــي.. ولكـــني استسلمت لمجد الثقافة.. وفكر الحرية.. والنضال من أجـــل فرحـــة عصفور يتحرر من سجنه.

وها أنا أنقش يومياتي وأتحدي عصف المواقف والغيوم.. وأنتظر على أرض الحضارة.. ثورة العلوم.. وأغني لنضال الإنسان.. وتحدي الهوية.. واحتفالات البراءة في مدارس الحب والجمال والحرية.

المؤلف

(١)

بعد رحلة أربعين عاماً في مجال التعليم.. ومازلت أحلم أن أعرف من أنا وماذا حققت؟ وكيف تغيرت المفاهيم والقيم؟ أريد أن أعرف.. ولكن هل الوردة تسأل عن ذاتها؟ وهل السحابة تبحث عن مرايا؟ وهل الكتاب يناقش قراءه في صفحاته؟ فمن أكون في هذه الجموع التي تدفعها البيوت كل صباح إلى أرض الكون؟ إلى مدارس الحب والجمال والحرية.

(٢)

يسألني الطفل الصغير عن ضوء القمر.. عن سر بكاء البسمة.. وسر بهجة الحزن وارتعاش السنابل في هجمات الريح..!! لا أدري ماذا أقول؟ لعل النبت الطالع الصغير يصرخ بالرحمة.. لعل النهر ينفجر في تعاطف مع القلب.. وحين يسألني الطفل عن سر الفراق والرحيل تنهمر قطرة حنان تتدفق بالمطر من شرايين روحي؟

(٣)

كثيرا ما لمحت دمعة في عيون أطفال المدارس فتهتف روحي: من يشاطرني الأحزان وألوانها؟ من يرسم الدموع في أجفانها؟ من يلملم البحار وشطآنها؟ من يا ولدي يكشف تاريخ جراحي وزمانها؟ من يكتبني حرفاً.. من يرسمني عشبة تبحث عن أوطانها.. من أيها السادة في هذا الكون يواجه أمواج روحي في حنانها؟

(٤)

عندما مات تلميذ من ضربات المعلم على رأسه.. سقطت أوراق الشجر في فناء المدرسة.. ووقف التلاميذ في طابور الصباح يقرءون الفاتحة على روح زميلهم الراحل.. وأقام المعلمون صلاة الغائب فماذا أقول؟

أيها الواقفون في مآتم الشهيد.. كفوا عن النشيد.. واطرحوا جانباً صفحات الدموع.. فالوطن يشرب قهوته السوداء.. ويتلو آيات من سورة الرحمن فقد سقط الإنسان.. وغفا المجد في أقبية الجليد.

(٥)

جاء تلميذي الصغير شاكياً فقال:

– كتاب اللغة العربية يثير الملل ولا أفهم منه شيئاً.

وفكرت كثيراً.. أدركت أنه أشبه بصفحات للوفيات، وعلينا حقاً أن نمزق أوراقه ونعيد تشكيل بيانه من جديد.

(٦)

وقفت المعلمة أمامي تدافع عما قيل من شدة قسوتها، وكيف ينفر منها التلاميذ.. وحين اقتحم طفلها الغرفة يسألها حاجة.. انفجرت كالبركان وانهالت عليه ضرباً، لأنه لم ينتظر خارج غرفة المدير كما قالت له.

وأدركت الحقيقة، وقلت لها:

– لا مكان لدينا لمعلم يشهر سيف الرهبة والرعب في نفوس الأطفال.

(٧)

صرختُ في وجوه التلاميذ.. هددتْ.. وأنذرت بالعقاب الشديد.. وضربت بيدي على طاولتي بشدة.. فوقف التلاميذ أمامي يحاصرهم الخوف والبكاء.. وأحكمت سيطرتي على عبثهم وتجاوزهم.. وفي ليلة ما سقطتُ من فرط الإجهاد والإعياء.. وعندما فتحت عيني في الصباح شاهدت وجوه الأطفال باسمة حولي ويقبلون جبيني .. وبعد رحيلهم خجلت من نفسي ورحت في بكاء شديد.

(٨)

همس تلميذي الصغير في أُذني، وقال:

– تسامحك مع شغب التلاميذ يحمسهم للتمادي، وعليك يا أستاذ بالشدة قليلاً أو الحزم. وأدركت كيف أن فرط الحنان يفسد هذا الجيل كثيراً.

(٩)

وقف أمامي ضاحكاً وقال:

– الكل هنا يكرهني.. لا أحد بالمدرسة يقبلني هنا.. حتى أنت أيها المدير لا تريدني لماذا؟

وأعجبت بصراحته وأنا أعلم أنه تلميذ مشاغب جداً ويسبب كثيراً من المشاكل أثناء شرح المعلم. وسألته عن السبب لما يشعر بذلك، فقال:

– لا أعرف.. أنا لا أشعر بالراحة هنا.. عندي رغبة أن أكسر كل شيء ولا أستمع للمعلم، ولا أريد أن أتعلم، ولا أعرف السبب.

وسألته إن كانت أسرته تعرف ذلك؟ فقال ضاحكاً:

– أنا أعيش في مؤسسة لرعاية الأيتام لا أعرف لي أما ولا أبا.

(١٠)

جاء تلميذي باكياً، وقال:

– سيخسر فريقنا المباراة إن لم ألعب معهم، ومدرس التربية الإسلامية يعاقبني بعدم اللعب، لأني لم أحفظ النص القرآني كما طلب منا.

وسألته عن سبب ذلك، فأكد انشغاله بالتدريب ليفوز الفريق. وابتسمت ومسحت دموعه، وأكدت له أنه سيكون بطل الفريق، ولا بد أن يفوز وينتصر، حتى يعود ويحفظ مرة أخرى.

(١١)

وقفت التلميذة الصغيرة أمامي تعاتبني قائلة:

– أنت وعدتنا أن تكون الرحلة للأهرامات الأحد القادم، واليوم جاءت أستاذة العلوم لتخبرنا بموعد الامتحان في هذا اليوم.

وسألتها:

– الرحلة أهم أم الامتحان؟

قالت بجدية:

– الرحلة طبعاً فيها أهرامات مصر فيها التاريخ واللعب.. و.. قلت لها مبتسماً:

– فعلا تاريخ مصر أهم من امتحان العلوم وسنقوم بالرحلة.

وانصرفت راكضة وهي تصرخ من الفرحة: الرحلة يوم الأحد.. الأحد.

(١٢)

جلستُ خجولاً.. منكسراً.. في زاوية من الغرفة.. والمعلم يساوم أمي على درس خاص لي .. جلس في كبرياء ونظر لي باحتقار، وقال لها:

– ابنك غبي في الدراسة.. اذهبي به يعمل نجاراً أو حلاقاً في إحـــدى الورش ولا تبددي فلوسك بلا جدوى.

وأمي تتوسل لهذا المعلم أن يخصص لي وقتاً ليعلمني، ويساعدني حتى أتفوق وأنجح .ثم نظر لي ساخطاً، وقال لها محذراً:

أنا لا أعرف الرحمة أو الشفقة في دروسي.

قالت أمي وهي تبكي:

– لك الحق أن تفعل به ما تشاء لينجح.

وقال المعلم لأمي الباكية:

– سأقبل هذا القدر الضئيل من المال منك لظروفك الصعبة.

وكان الدرس الأول.. كنت منسحقاً بـــين يديـــه.. أتلقـــى الضربات على وجهي ورأسي.. واللكمات على صدري وكتفي .. ثم يقول المعلم ساخرا:

– ألا يكفي أن أمك لا تدفع المال الذي أستحقه؟ أنت غبي لن تفلح.

ولم أكن قد فهمت شيئاً إطلاقا، وأنا أعاني من الذل والإهانـــة والضرب والشتائم. وحين تسألني أمي أقول لها كاذباً حتى لا تحزن

– المعلم طيب القلب ويعاملني كابنه.

وأختبئ في الغرفة وحدي أبكي.. ولا أدري لماذا كان يوجه لي اللكمات والصفعات حين يعلمني؟

(١٣)

كنا في رحلة مدرسية إلى منطقة الأهرامات التاريخية.. والمدرسات يصرخن : لا أحد يتسلق حجارة الهرم.

ودنا مني أحد التلاميذ وهمس:

– أتخاف تسلق الهرم..؟ إذا كنت رجلا اتبعني!!

وبالطبع قلت في تحد:

– أنا رجل..وأسرعنا إلى الهرم كلما تسلق حجراً قفزت خلفه، وقلت ضاحكاً:

– أنا شجاع.

وحين شعرت بالتعب توقفت ونظرت خلفي.. وصعقت.. لقد صعدت مسافة عالية أثارت خوفي وصديقي يدفعني إلى الاستمرار، وأنا لا أستطيع أن أتحرك.. ضحك وتركني مرتعباً.. ولا أدري كيف سأنزل من فوق هذا المكان.. وشعرت بالدوار وأني سوف أسقط.. وبدأت أبكي.. ثم ارتفع صوتي أنادي على المعلمات والتلاميذ.. ووجدت صديقي قد استطاع الهبوط من الجهة الأخرى، وصرخ:

– هل الشجاع يبكي؟

والجميع يضحكون ..

(١٤)

كانت معلمة العلوم تعلمنا كيف نـــزرع الـــورد في حديقـــة المدرسة، وقد قسمتنا إلى مجموعات، وكنت ضمن التلاميذ الـــذين يصفقون بأياديهم لتبتعد الطيور حتى لا تأكل من شجرة العنب.

والمعلمة تحذرنا ألا نأكل من هذا العنب لأنه لم ينـــضج بعـــد، ولكني في الخفاء كنت ألتهم حبات العنب بسرعة وتسألني:

– هل أكلت من عناقيد العنب؟

أقول مؤكداً:

– لا أنا أعرف أنها لم تنضج بعد..

وضحكت عليهم جميعاً.

ولكن بعد ساعات كنت أعاني وجعا في المعدة والتف حـــولي التلاميذ، وجاءت المعلمة وقالت:

– أنت أكلت من عناقيد العنب أيها الشيطان .. ونظرت إليهم في خجل، وظللت أصرخ من آلامي.. ودُهشت كيف اكتشفوا ذلك؟

(١٥)

اقتربتُ من أمينة المكتبة في المدرسة وسألتها:

– لماذا نقرأ؟

نظرت في حنان، وقالت:

– القراءة علم.. ومعلومات.. ومتعة.. وحياة .

قلت في محاولة للفهم:

– ولكن المدرسة تعطيني العلم والمعلومات واللعب متعة وحياة، فلماذا نقرأ مرة أخرى؟

قالت وقد عرضت أمامي أحد الكتب.

– ألا تعرف أن القراءة تعلمنا معنى الحب ومعنى الخير والصدق.

– أنا أحبك وأطيع أمي وأبي، ولا أكذب، ولا حاجة للقراءة. قالت المعلمة مرة أخري في صبر:

– لابد أن تقرأ لتعرف كيف تفكر وتتحدث مع الناس، وتصبح من الناجحين.

– أنا أنجح كل عام والناس تحبني ولا أحتاج أن أقرأ.

قالت وقد لاحظت قلقها:

– الكتاب أجمل صديق معك في كل وقت ومكان.

قلتُ في تحدٍ:

– أووه لديا أصدقاء لا حصر لهم. قالت:

– أول كلمة في القرآن نزلت من السماء اقرأ.

قلتُ في ثقة:

– حسبي أن أقرأ في كتبي المدرسية، قالت في محاولة لإقناعي:

– القراءة هواية جميلة.. ذكاء.. ووعي.. وإدراك.

قلتُ بتأكيد:

– عندي ألعاب الفيديو والبلاي استشين (play station) أجمل الهوايات تنمي ذكائي وإدراكي.

ومللتُ من الحوار، ولكني ضحكت قائلاً:

– لا أحد يحب القراءة من أصدقائي.. ألعاب الفيديو أحلى. وعندما تركت معلمتي المدرسة وسافرت خارج البلاد شعرت في لحظات بكلماتها عن الكتاب وعشقها للقراءة وفي يوم كنت أتحدث معها خلال النت قلت لها في خجل:

– لقد بدأت أقرأ.. بعد سفرك.. لم أجد إلا الكتاب صديقي الوحيد وشعرت بقلب معلمتي يحلق في فضاءات من البهجة.. وتساءلتُ مع نفسي:

– ولماذا لم أقتنع بكلماتها من البداية؟

(١٦)

كنت أتفقد فصول المدرسة، وإذ بي أسمع صوتاً جميلاً لتلميذة تتلو بعض آيات من القرآن الكريم. وسألتها:

– علمك تلاوة القرآن؟

– معلمتي بالمدرسة وماما تساعدني قليلا.

وشعرت بفرحة كبيرة أن القرآن يتردد على شفاه الصغار، ويشرح صدورهن ويضيء عقولهن.

(١٧)

اختلفت في نقاشي مع أم تلميذة في المدرسة.. الأم تعترض أن امتحان التعبير في اللغة العربية لم يتدرب عليه التلاميذ ولم يحفظوه. وأنا أؤكد للسيدة أن قطعة التعبير تفكير وإبداع للتلميذ ليعبر بحرية، ولا يجوز أن يحفظها التلميذ من قبل.

وقالت الأم: اعتدنا أن يحفظ الطالب كل شيء.

وقلت لها: هذا نظام عتيق يصادر التفكير النقدي وحرية التعبير، ويخلق جيلا مثل الآلات أو الببغاوات.

(١٨)

شاهدت التلميذات يزرعن الورود في حديقة المدرسة.. حلقت روحي في السماء.. فمن يزرع وردة في أرض الوطن يعرف كيف يعشق النيل والشجر وسنابل القمح والنخيل العالي.. ويحلم أن يلمس قمم المحال ويقدم للإنسانية جليل الأعمال.. وعظيم الإنجازات.

(١٩)

وقفت أسلم شهادات التقدير والميداليات التذكارية للتلاميذ الفائقين ومجموعات كثيرة من الآباء والأمهات يجلسن في انتظار ابنهم أو ابنتهم، ليعانقوهم في حب مع الوقوف أمام المصور لتسجيل

هذا الحدث المبهج. وجاءت تلميذة وحدها حين جاء دورها لتصافحني وتستلم شهادة التقدير، وسألتها:

– أين بابا؟.. أين ماما؟ لالتقاط الصور؟

نظرت الفتاة حائرة وهمست لي:

– أنا أعيش مع جدتي المريضة، أما ماما وبابا الله يرحمهما.

وتقدمت منها وجمعت بعض المدرسين وقلت لها:

– نحن أهلك ودعينا نقف بجانبك من أجل الصورة.

(٢٠)

فرحتُ بالندوة الثقافية بالمدرسة تحت عنوان "مدارس بلا عنف"، استقبلت الضيوف ومنهم مدير المنطقة التعليمية ونظار ومديري المدارس الأخرى، ومندوباً عن وزير التربية وتجمعت القنوات الفضائية وبعض محرري الصحف. وأيقنت أن الندوة نجحت حين أثنى الجميع على أهميتها، ومدى تفاعل المعلمين والطلاب.

غير أن حدثاً أطاح بكل ما كنت أخطط له وأحلم به حين اشتد الصراخ خارج قاعة المسرح، وجاء من يهمس في أذني:

– أحد الطلاب حاول الدخول عنوة، فقام المعلمون بطرحه أرضاً وسببوا للطالب جراحا بليغة قد تؤدي لتدخل الشرطة والإسعاف.

وأيقنت أن كارثة قادمة لا محال.

(٢١)

كنت أفحص طلبات التوظيف الجديدة مع قسم شؤون الموظفين بالمدرسة فقرأت اسما تهيأ لي أني أعرفه. وبدأت أتذكره.. كان ذلك في السنوات الأولى من عملي بالوزارة وكان مديراً للمدرسة التي نُقلت إليها.

في الحقيقة عانيت منه ظلماً وتحديا لا مبرر له حتى أحالني إلى التحقيق، لأني كلفت الطالبات إعداد بحث عن حياة الشاعر "نزار قباني"، وكانت تهمتي التحريض على إفساد عقول البنات بالشعر الماجن.

وعندما التقيت به لم يعرفني على الفور، فقد مسح الزمن ذكريات كثيرة، وحين رجعت به إلى حكاية نزار قباني ابتسم، وقال:

– إنه من أهم شعراء الحب والنضال.. سامحني لم أكن مثقفاً بما فيه الكفاية.

(٢٢)

فوجئت بمجموعات من الطلبة والطالبات بالمرحلة الثانوية يقدمون اقتراحاً بإقامة حفل: بيجاما بارتي. وضحكت كثيراً وأنا أستمع إلى آرائهم كأنهم ينظمون مسيرة عمل خيري. قال أحد الطلاب:

– الفكرة رائعة نأتي بالبيجاما ونمرح.

قالت طالبة أخرى: جميع المدارس الأمريكية تحرص على هـــذا الحفل.

وطالب آخر قال: سنأتي بشيء مختلف.. يثير صدمة.. تدهش المجتمع.

وطالبة أخرى تقول: صديقاتي في كندا وأستراليا يمارسن هـــذا الحفل كل عام.

نظرت إليهم في رثاء.. وأدركت أنهم ضحايا الغزو الفكـــري، واقترحت عليهم أفكارا جديدة وقلت:

– مصر تعاني.. هناك أطفال يتامى.. هناك أسر شهداء.. يحتاجون إلى مساعدتنا.. فلنجعل هذا اليوم يوم التبرع الخيري للفقراء.

(٢٣)

وقَّعت طلب إجازة للمعلمة لتتقدم لامتحانـــات الدراســـات العليا.. فإذا بها تعود حزينة.. فقد قرر مدير الحسابات خصم الإجازة من راتبها. وتحدثت مع المدير، وقلت له:

– نحن دولة تشجع العلم.. وتحث المثقفين والمعلمين على الدراسات العليا فكيف ذلك، وأنت تخصم من راتبها الضئيل؟

(٢٤)

في وقت صلاة الظهر سمعت صوت التلاميذ يهتفون: لا إله إلا الله محمد رسول الله. وأسرعت إلى المسجد فدهشت للضوضاء والصياح وسألتهم:

– لماذا هذا الصراخ؟

قال أحد التلاميذ الصغار:

– إننا نتلو الشهادة وهل هذا حرام؟

– ولكن أنتم أنهيتم الصلاة، فلماذا تتحول إلى مظاهرة وبأصوات عالية؟

قال تلميذ آخر:

– نحن ندعو زملاءنا للصلاة فهناك بعضهم يتكاسل.

قلتُ لهم في حزم:

– الله يحاسب كل فرد وليس أنت أو غيرك.. وربما لديهم العذر والله غفور رحيم.

وأدركت أني في مأزق مع التلاميذ، فنظرت إلى معلم التربية الإسلامية، فقد لين الأمر دون مشاكل فإذا به يقول متحمساً:

– وأعدو لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل.. علينا أن نُرغم الجميع على الصلاة بالقوة.

وصدمني المعلم بكلماته الخطابية وقلت للتلاميذ:

– كلنا ندعو بعضنا إلى الصلاة بالحسنى، والقول الجميل وليس بالقوة، وعلينا احترام مواقف الآخرين.

(٢٥)

اندفع الشيخ محمود داخل غرفتي كالمصعوق، وقال محذراً:

– مصيبة كبيرة يا سيادة المدير.. مصيبة بالمدرسة.

نهضت واقفاً في ذعر وسألته:

– هل سقط تلميذ على الدرج؟

– لا بل ما هو أفظع!

– هل ضرب معلم أحد التلاميذ وأغشي عليه.

قال الشيخ محمود في قلق:

– يا سيادة المدير.. المدرسة سوف تحتفل بعيد الأم غداً!!

وسألته في خوف ودهشة:

– وماذا سيكون؟ أين المصيبة يا شيخ محمود؟

– المصيبة هو الاحتفال بعيد الأم، لأنه بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في الجحيم، إن شاء الله.

وجلست مسترخياً على مقعدي، وقلت له:

– يا شيخ محمود إنه عيد الأم.. يوم تكريم الأم.. يوم نعبر فيه عن حبنا للأم فهل هذا ضد الدين الإسلامي؟

وأخذ يجفف عرقه، ثم قال:

– لابد أن تصدر قراراً بوقف الاحتفال غداً يا سيادة المدير، أرجوك هذا لا يجوز.وحاولت إقناعة في هدوء وقلت:

– ليس احتفالاً وليس مهرجاناً، وليس يوماً خاصاً ولكن غداً يعبر الأطفال بمشاعرهم الرقيقة بكلمات جميلة إلى الأم.

قال الشيخ محمود معترضاً:

– لا يجوز.

– غداً كل تلميذ سيقول كلمة حب إلى أمه، اعترافا بفضلها ودورها كما قال الشاعر حافظ إبراهيم:

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراقِ

قال الشيخ محمود في ضيق:

– نحن لدينا مناسبتان للاحتفال هما عيد الفطر وعيد الأضحى، فكيف يكون هناك عيد للأم؟

قلت مرة أخرى أكرر كلامي:

– ليس عيداً وإنما فرصة لكل منا يعبر بالحب إلى أمه، وفرصة لك يا شيخ محمود لتذكر أمك وتزورها وتطيب خاطرها.

وقف صامتاً والدموع تنساب من عينيه وقال:

– الله يرحمها كانت تستحق أن أحتفي بها.

(٢٦)

صرخت الأم أمامي:

– لقد مللت من مشاكل هذه المدرسة.. سوف أقدم شكوى ضدكم.. أنتم مدرسة لا تنتمي إلى التربية أو العلم أو فضائل الأخلاق.. لقد تعبت ومللت..

وشكرت الأم وتسامحت لهياج أعصابها واستدعيت ابنتها التي تعاني من صعوبات في فهم مادة الرياضيات، واستدعيت المعلمة لتكون مع التلميذة تشرح لها كل شيء.

وفي اجتماع مجلس الآباء والمعلمين توقعت أن تواصل الأم صراخها وشكواها، ولكن إذ بها تقول في أسف:

– أتقدم بالشكر إلى مدير المدرسة الذي تحمل موقفي واحتوى غضبي، وأشرف على ابنتي بنفسه لتفهم ما مر بها من دروس أنا آسفة جداً.

أنت رجل الفكر والاحترام حقاً.

(٢٧)

وقفتُ في طابور الصباح.. والتلاميذ جميعاً في لحظات سكون وترقب يتطلعون إلى علم مصر يرفرف فوق مبنى المدرسة.

صاح معلم التربية البدنية: صمتاً.. انتباه.. لا حركة.. هذه تحية علم مصر. وصاح أحد الطلاب في حماسة هزت مشاعري:

– تحيا مصر تحيا مصر..

وردد الطلاب: تحيا مصر ثلاث مرات بصوت علا في آفاق السماء، يتجاوب صداه على ضفاف النيل والمدائن والقرى والحقول حتى سمعت الشعب المصري يهتف ليزلزل حجارة الكون: تحيا مصر.. تحيا مصر.

(٢٨)

كانت مصر في محنة.. وطلابي في مأساة أخرى.. إنهم يتساءلون:

– ماذا يحدث في مصر؟ من هم الثوار؟ من هم الأعداء؟ ومن الذي يضع القنابل بين الشجر الأخضر.. وينشر الرعب في الشوارع والميادين؟

قلت لهم في ثقة:

– خلاصنا في العلم.. والإيمان الصادق.. وبناء الفكر والوطن.

(٢٩)

سمعت أحد الطلاب يقول ساخراً:

– اليوم موعد الامتحان.. يوم يُكرم المرء أو يهان.

اقتربت منه، وقلت له باسماً:

– هذه مقولة خاطئة.. الامتحان يوم التحدي والتغلب على الهوان.. يوم انتصار عقل الطالب على اختبارات العلم.. ومن يتعلم لا يهن أبداً.

(٣٠)

كان درس اللغة العربية عن سيرة على مبارك. ظل المعلم يقرأ نص كتاب الوزارة، ثم يناقش الأسئلة مع التلاميذ الصغار. قاطعت الدرس وقلت لهم: – مصر ثرية برجال عظام.. مصر تحتوي تحت جناحيها عقولا إبداعية في العلم والثقافة والتربية، علينا أن نذكرهم ونكتب عنهم بحثاً.

كانت مفاجأة أن ينهض أحد التلاميذ ويقول:

– مثل نجيب محفوظ حائز جائزة نوبل في الآدب.

وتلميذ آخر قال:

– كذلك أحمد زويل نال جائزة نوبل في الكيمياء.

وقال آخر: توفيق الحكيم.. ويوسف إدريس.. ومصطفى محمود والعقاد وطه حسين في الأدب.

وأضاف المعلم أسماء أخرى لهم، فقال:

– عالمة الذرة سميرة موسى، وأستاذها العالم على مصطفى مشرفة.

ونظرت إلى المعلم مبتسماً.. فآفاق المعرفة ليست كتاب الوزارة فقط، وإنما الكتاب ضوء يشير إلى الدرب.

(٣١)

سألت التلميذ الصغير الذي وقف أمامي حزيناً مكتئباً:

– لماذا ترفض حصص اللغة الإنجليزية؟

نظر في وجهي ثم اغرورقت عيناه بالدموع، وقال:

– مستر أحمد أهان كرامتي أمام زملائي.. جذبني مـــن ملابـــسي.. ووجه لي الصفعات.. وألقى بي خارج الفصل مع الشتائم البذيئة.

وسألته عن سبب ذلك فقال التلميذ في صدق:

– كنت أتحدث مع زميلي أثناء شرح المستر.

قدمت اعتذاري له ووعدته ألا تهان كرامة أحد في مدرستي.. ووعدني أن يكون ملتزماً بالانتباه أثناء الشرح.

وفي اليوم التالي وافقت على استقالة مستر أحمد من المدرسة.

(٣٢)

سألتني الصغيرة:

أنت مدير المدرسة، ويمكن أن تحل لنا هذه المشكلة، ألا ترى أن كتاب المواد الاجتماعية ضخم وبه مواضيع كثيرة دون فائدة.

ابتسمت، وقلت لها:

– ولكن الكتاب مفيد .. يشتمل على معلومات ذات قيمة يجـــب دراستها.

وانصرفت التلميذة غير مقتنعة، وكنت واثقاً أنها تقول الحقيقة.

(٣٣)

استدعاني معلم التاريخ لمواجهة تمـــرد الطـــلاب ورفـــضهم للمنهج.. وسألتهم وأنا حائر عن السبب، فقال أحدهم:

– هذا تاريخ ملوث بالدماء.. حروب.. دمار.. غزوات.. احتلال..

وقال طالب آخر:

– سئمنا هذه القصص.. من أحمس والهكسوس.. وصلاح الدين والصليبين والمماليك والتتار.. وهجمات المغول وسقوط بغداد والغزو العثماني، وهجمات الفرنسيين والإنجليز على عالمنا العربي وجمال عبد الناصر والثورة وحرب فلسطين والسادات واغتياله ومبارك ومحاكمته.

وصاح معلم التاريخ: ماذا تريدون؟

قال طالب آخر:

– نريد أن نعرف أين ذهب العلماء في تلك الفترة؟ ماذا قدم الأدباء والشعراء؟ ما الاختراعات التي خدمت مصر أثناء هذه الأحداث، نريد أن نعرف أين الرجال المبدعين وماذا فعلوا؟

وأدركت أننا نواجه جيلاً لا يسامح ولا يعرف النفاق.

(٣٤)

وقف التلميذ يشرح درس العلوم باللغة الإنجليزية. دُهشت وزاد إعجابي بهذا الأسلوب التربوي في تقديم الدرس. وكان التلميذ يشرح.. يعلق.. يسأل.. ويجيب على أسئلة زملائه في ثقة وثبات.

بعد الدرس سألني المعلم عن رأيي، فقلت له:

– لو كل معلم نهج هذا المبدأ في التعليم لصار عندنا آلافا من أحمد زويل، وأحمد شوقي ونجيب محفوظ.

(٣٥)

أوقفني في الطريق، وقال مبتسماً:

– ألا تذكرني يا أستاذي؟

وبالطبع أدركت أنه أحد تلاميذي، ولكن بالطبع لا أتذكر اسمه أو المدرسة التي درست له فيها. وعانقني وقال مبتهجاً:

– التوفيقية الثانوية يا أستاذ.. كنت معلمي هناك.

وعندما لم تنقذني الذاكرة رحبت به وسألته عن أحواله، فقال:

– أنا دكتور في مركز البحوث العلمية وأعد مشروعاً لاستغلال الصحراء في مصر.

وبعد أن ذهب تذكرت هذا الوجه.. كنت ألحه دائماً يسأل.. ويناقش وينافس.. وكنت أضيق من تعليقاته ونهمه الشديد للمعرفة.

(٣٦)

قال لي غاضباً:

– أرجوك أريد عقاباً رادعاً لابني.. فهو مشاغب.. ومثير للقلق ولا يريد أن يدرس.

قلت له:

– العنف ليس وسيلة للعقاب.. تفاهم معه.

أمسك الأب بيدي، وقال:

– لقد تربيت على العنف والشدة وها أنا مهندس كبير في الدولة.. هذا الجيل كالشجر العقيم لابد من غرسه في الأرض بقوة.

وتأملت كلمات الأب.. هل هذا جيل لا يصلح معه سوى العنف والقسوة؟

(٣٧)

صُعقت وأنا أتابع حادثة في التليفزيون عن المعلم الذي ضرب تلميذه على رأسه بالعصا وسقط ميتاً.

وفي الصباح كنت أزور فصول المدرسة.. وابتسم للطلاب.. وأحتويهم.. وأصافحهم .. وأهمس لكل معلم:

– حذاري العنف.. إنهم براعم صغيرة في حاجة إلى الحب والحنان والاحترام.

(٣٨)

كانت مباراة كرة القدم.. وخسر فريق المدرسة.. وانهالت اتهامات على حكم المباراة حتى جاء كابتن الفريق متظلماً. ابتسمت، وقلت له:

– الهزيمة درس قاسٍ، ولكنه يُعلمنا أن نتحدى كل شيء من أجل الانتصار.

(٣٩)

قال لي تلميذي في خوف:

– غداً عندنا كارثة في البيت.

واستفسرت منه مندهشاً، فقال:

– سوف تتزوج أمي رجلاً آخر.

– وأين أبوك؟

– توفي منذ ثلاث سنوات.

وتمزق قلبي لهذا الصغير الذي سوف يواجه رجلاً آخر، ربما يجعل حياته حالكة السواد.

(٤٠)

انتشر الخبر بسرعة البرق في المدرسة.. توفيق الحكيم سيكون ضيف الندوة الثقافية التي تقام كل أسبوع في المسرح. كنت قلقاً.. كيف أعد له الأسئلة؟ هل أطلب من قسم اللغة العربية أن يقدموا لي بعض المعلومات عن الأديب الكبير الذي أحبه وأقدره؟

قررت أن يكون الأمر مسئوليتي وحدي، دخل الحكيم، واستقبله الطلاب بالهتاف والترحاب ولوحات لكتبه الأدبية، وطرحت عليه سؤالي:

– أستاذنا الكبير نود أن نعرف كيف كانت الفلسفة الذهنية دربا نحو تخطيط مسرح للمجتمع المصري يحمل قضاياه ومشاكله؟

ونظر لي الحكيم في غيظ وضيق، وسأل أحد أصدقائه عني فسمعت من يقول له: إنه حضرة مدير المدرسة.

وإذا بالحكيم يتطلع إلى الطلاب، ويقول لهم:

– سوف أقص عليكم قصصا من حياتي، عندما كنت صغيراً مثلكم.

وشعرت بالاضطراب.. ولكن نسيت كل شيء عندما تفاعل الطلاب معه وغرقوا في الضحك والانسجام.

وفي نهاية الندوة قال لي الحكيم:

– يا أستاذ سؤالك كان يحتاج إلى شرح طويل قد لا يفهمه الصغار.

(٤١)

أسدل الصمت ستائره على فصول المدرسة.. وانشغل التلاميذ بقراءة أوراق الامتحان. تأملت الوجوه.. هادئة.. في تفكير عميق إلا تلميذاً كان يقاوم النعاس ويتثاءت كثيراً، ويميل برأسه على طاولته.

سألته: كيف تنام أثناء الامتحان؟

قال في ضيق: أمي جعلتني أسهر أذاكر طول الليل، وها أنا لا أستطيع أن أكتب.

سألت طبيبة المدرسة أن تصطحبه ليغسل وجهه، ويتناول إفطاره ثم يعود ليواصل الامتحان. وكان المعلم الملاحظ في الفصل ينظر لي في دهشة واعتراض.

(٤٢)

كان درس عن أسباب الحملة الفرنسية على مصر، وقد أبدع مدرس التاريخ من خلال شرح شامل وعرض للصور والأفلام

التسجيلية، واستجاب الطلاب وناقشوا في عمق وفهم كبير أسعدني للغاية.

وعندما أكد المعلم على إعداد مشروع أو بحث حول نـــابليون وحملته على الشرق اعترض أحد الطلاب، وقال:

– عفواً يكفيني ما درسته عن نابليون رغماً عن رغبتي وأفكـــاري، ولكن أرفض أن أعد عنه بحثاً أو مشروعاً آخر.

وكنا ننصت إلى الطالب في دهشة ولا ندري ماذا يريد، ولكنه قال محدقاً في وجوهنا:

– إن نابليون سفاح كبير وليس بطل كما تتصورون، هـــل قـــرأتم كتابات العقاد عن الطغاة إنه أحدهم.

وخارج الفصل سألت معلم التاريخ عن نابليون، فقال:

– احتمال إن الطالب صادق في رأيه.

(٤٣)

قال المفتش الذي جاء من المنطقة التعليمية:

– لا تضيعوا الوقت في أنشطة ومسرح وموسيقى وألعاب بدنيـــة.. نحن على أبواب امتحانات آخر العام.. نرجو حذف هذه الحـــصص واستبدالها بمواد علمية.

وعندما ذهب إلى حاله.. استدعيت الوكلاء ورؤساء الأقـــسام في اجتماع هام وقلت لهم:

– علينا الاهتمام أكثر بالنشاط والمسرح والموسيقى وحصص الرسم والألعاب البدنية، والمنافسات الرياضية ورعاية الموهوبين في الهوايات المختلفة.

وهمست الوكيلة في أذني:

– هل هذا ما أشار إليه مفتش الوزارة؟

ابتسمت وقلت لها:

– إذا لم يشعر التلاميذ بالمتعة في المدرسة لن يتعلموا شيئاً.

(٤٤)

قلت للمعلم في حزم:

– يجب عليك الاعتذار للطالب لأنك أهنته وظلمته دون وجه حق.

في غضب قال المعلم معترضاً:

– وهل من المعقول أن يعتذر المعلم للطالب؟

قلت: بالطبع علينا الاعتراف بأخطائنا ليتعلم منا الصغار فضيلة الصدق.

(٤٥)

جاء الأب متذمراً، وقال:

– كيف يُطلب من ابنتي أن تقوم بنظافة الفصل؟

وابتسمت، وقلت له:

– ليست ابنتك وحدها ولكن معها مجموعة من فريق الصحة والنظافة.

ورد الأب معترضاً:

– وأين عمال النظافة لديكم أين العاملات؟

قلت له محاولا تهدئة أعصابه:

– المدرسة هي بيت الطالب وابنتك تؤدي ذلك برغبتها.

وفي أثناء الحوار مع الأب طرق الباب مجموعة من الطالبات، ومنهن الابنة، وقالت:

– تسمحون لنا بإفراغ سلال المهملات؟

وشهق الأب من الدهشة.. وابتسمت للمفاجأة.

(٤٦)

اعترض طالب الثانوية العامة وقال:

– أرجوكم.. مللنا من قصة "الأيام" التي قرأها آباءنا وأجدادنا.. ألا توجد روايات أخرى تقررها علينا الوزارة؟

قلت للطالب:

– هذه رواية طه حسين.. ألا تعلم من هو هذا الأديب؟

قال الطالب مبتسماً:

– على عيني ورأسي طه حسين، لكن هناك أدب نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم ويوسف إدريس.. وغيرهم.

وحين خرج الطالب من مكتبي قال وكيل المدرسة الذي تابع الحوار:

– جيل لا يفهم شيئاً.

ولكني نظرت إليه في عتاب، وقلت:

– الجيل يفهم أفضل منا.. الطالب على حق.

(٤٧)

وقف التلميذ الصغير يبكي قائلا:

– كل مدرس يضربني.. ويسخر مني.. وأصحابي يضحكون.. حرام عليكم.. أنا عندي كرامة.. عندي إحساس.. احترموني شوية.

وسمعت شكوى تلميذي، وقلت له:

– كلنا نحترم بعضنا.. ولن أسمح لمعلم أن يجرح إحساسك أو يهين كرامتك.. لك كل التقدير والاحترام.

وبعد أن خرج التلميذ من مكتبي أدركت من أين ينبع الإرهاب والتطرف.

(٤٨)

حين زار الإمام محمد عبده مدرسة التلميذ عباس محمود العقاد، وشاهد كراس التعبير قال له:

– ما أجدر لهذا الفتي أن يكون أديباً وحقا أصبح العقاد من كبار مشاهير أدباء العالم العربي. فلماذا لا نشجع الطلاب الموهوبين؟

(٤٩)

كان العقاد مدرساً.. وطه حسين.. والمازني.. وأنيس منصور.. وجان بول سارتر.. وزكي نجيب محمود.. وسقراط.. وأفلاطون.. وابن سينا.

كان هؤلاء المبدعون مدرسين عظام خلقوا أجيالاً من الأدباء والعلماء والمفكرين.. فلماذا لا تولي الدولة اهتماما لبناء جامعة المعلم المبدع؟

(٥٠)

التفوا حولي في فناء المدرسة زهور تتفتح كل صباح تحت شمس يوم جديد، وقالوا:

– نريد الاحتفال بيوم دعم الشعب السوري.. هذه صديقتنا أمل من سوريا.

وفي اليوم التالى طرقت باب مكتبي تلميذة في المرحلة الإعدادية، وقالت:

– تقيم يوماً لدعم سوريا وتنسون العراق.

وأقمنا يوماً من أجل العراق.. ثم تجمع حول مكتبي مجموعة أخرى من التلاميذ يقولون:

– وماذا سنفعل من أجل زملائنا من ليبيا؟

وقررت في النهاية أن يكون يوم الدعم للأمة العربية.

(٥١)

كان يوم إعدامي حين قلتُ في شجاعة للمعلم :

أنا لم أحاول الغش.. ولم .. وقبل أن تقفز كلماتي على شفتي.. هوى بكفه على وجهي صارخاً: أيُها الولد الفاسد .. الكاذب .. أنت كنت تغش من ورقة زميلك.

ونهضتُ من فوق الأرض أمسح الغبار عن ملابسي.. وكنتُ حقا بريئاً من تهمة الغش.

وأصررتُ على الصدق، مقتنعاً أن هذا المعلم الجبار في ضرباته سوف يعجب بشجاعتي لأني أقول الصدق.

وسقطتُ مراراً على الأرض.. أنا طفل الثامنة من عمري لا أدري ماذا أفعل في مواجهة هذا الوحش الكاسر.

ويتلقاني المعلم بكلتي يديه ويضرب بجسدي النحيل عرض الحائط.

وأسقط مرة أخرى.. ثم أنهض ليعاود توجيه اللطمات إلى وجهي وجسدي دون رحمة.

ويسألني صارخاً:

قل الحقيقة أيها الكاذب وإلا.. من هول الضربات والألم يسري في جسدي ضطررتُ إلى الكذب.

وقلتُ وأنا منهار في بحر دموعي:

-أجل كنتُ أغش!!!

وسكت المعلم.. واستراح..ث م ابتسم كأنه حقق انتصاراً كبيراً، وقال للتلاميذ الصغار وهم يرتعشون من الرعب والخوف:

- هذا هو عقاب كل من يغش من زميله، وهذا الكاذب سوف يُعاقب غداً في طابور الصباح.

وفي اليوم التالي.. كنت أنتظر حفل إعدامي أمام تلاميذ المدرسة الابتدائية.

وجاء المعلم وصرخ في وجهي:

اخلع حذاءك بسرعة يا كلب.. يا ..وكنا في وقت الشتاء.. وبقايا دموع على وجه السماء.. وأنا أرتجف من البرد.. ومن الرعب واستسلمت لحفل إعدامي بالمدرسة.. وجاء أحد عمال المدرسة وأطبق على قدماي العاريتين وأنا مستلق على الأرض.

وتحمس المعلم التربوي، ورفع ذراعه في الهواء وهو يحمل عصاً رفيعة.

وأخذ يُلهب قدماي بالضرب..ثم تركوني على الأرض أتوجع مذبوحاً..وانصرف التلاميذ الصغار وهم ينظرون بعطف وعيون دامعة،ومنذ ذلك اليوم.. يوم إعدامي.. تعلمتُ أن أكذب.

(٥٢)

شاهدته يقترب من المعلمة في خجل حاملاً هدية صغيرة، ويقول لها:

– أمي ماتت منذ عام فهل ممكن أن أقدم هديتي لكِ في عيد الأم، وتكوني أنتِ أمي؟

وارتمى بين ذراعيها وعيناه تترقرق بالدموع.

(٥٣)

جاءت عاملة النظافة تبكي..

– اقتطعوا من راتبي مبلغاً من المال بسبب غيابي.

وحين سألتها عن السبب، قالت:

– ابنتي كانت بالمستشفي تجري لها عملية جراحية.

اتصلت بشئون الموظفين وقلت لهم:

– الإدارة موقف إنساني قبل كل شيء.. يصرف لها مبلغاً من المـــال مساعدة، من أجل ابنتها الصغيرة.

(٥٤)

وقفت المعلمة غاضبة وقالت:

– زميلنا يوزع أوراق مراجعة على الطلاب.

وسألتها: وماذا في ذلك؟

قالت بصوت هامس:

– يا سيادة المدير إنه يحارب أرزاقنا.

وأيقنت سر تدهور التعليم في بلادنا.

(٥٥)

مواقف غريبة تمر بي.. على الجدران لوحات شعرية للشاعر أحمـــد شوقي تقول:

صلاحُ أَمْرِكَ للأخلاقِ مَرْجِعُـــهُ
فَقَومْ النفسَ بالأخلاقِ تـــستقمِ

وفي مكان آخر نقرأ:

إنما الأممُ الأخلاق فإن همُ ذهبتْ أخلاقُهم ذهبوا وفي الندوات الثقافية نتحدث عن القيم الصادقة النقية.. والتعاون والحب والحـــق والخير والجمال والعلاقات الإنسانية الراقية.. ورغم ذلـــك تـــأتيني

شكاوى من الطلاب بأن أحد المدرسين قد أطـــاح بـــالقيم والآداب عرض الحائط وقذف الطلاب بأقذع الشتائم.

فهل نعيد تربية المعلم أم الطلاب؟

(٥٦)

كانت مسابقة التصوير عن أجمل صورة من بلدي.

وعند فحص الصور وجدنا صورة سيئة لنهر النيل والتلـــوث يطفو على سطح الماء وبقايا طيور عفنة.. وفتات من الأطعمة تغطي ضفاف النيل.

وقالت الطالبة بفخر:

– تلك هي أجمل صورة تثير الثورة ضد التلوث!

(٥٧)

أنه ينافق المديرين.. يتجاوز حدود سلطته.. يدعي أنه يفهـــم كـــل شيء.. ثم يرسل تقارير سرية عن المعلمين إلى المدير العام.. ويشكو في المنطقة التعليمية من سوء الإدارة المدرسية.

أكثر من مرة حذرته.. ولكن يبحث عن تحقيق ذاته بطرق غير مشروعة.وأدركت لماذا نعاني من التخلف والبلادة؟

(٥٨)

– لم يعد المعلم يستمتع بمكانة عليا في المجتمع؟

هكذا قال لي صديقي ونحن نجلس في قاعة المؤتمرات مع الوزير الذي يتحدث عن الكادر الجديد للمعلم، وأن الوزارة انتهت من بناء الف مدرسة جديدة.

وهمس لي صديقي:

– ألم يكن من الأفضل إنفاق نصف هذا المال على بناء فكر وحياة المعلم؟

(٥٩)

جاءت الطفلة باكية.. سألتها عن سر دموعها.. لزمت الصمت.. وقالت صديقتها:

– باباها الضابط بالقوات المسلحة استشهد أمس في سيناء.

وناحت عصافير فوق أشجار المدرسة.. وخجلت من نفسي.. ولعنت الإرهاب وأعداء الوطن.

(٦٠)

وقفت المعلمة حزينة تودع المدرسة والصغار حولها تنهمر دموعهم ويعلو صوتهم بالاعتراض والرفض. فقد قررت المعلمة أن تتوقف عن العمل بالمدرسة دون إبداء أسباب.

وعندما صممت أن أعرف سر هذا القرار، قالت بألم:

– إنه زوجي.. يرفض أن أعمل وأظل في البيت لراحته، رغم إننا لم ننجب أطفالاً.

وتعجبت لجبروت الرجال، وأنه ما زال هناك دائماً من يحاول قهر المرأة؟

(٦١)

كنت أسيرا في الممرات بين الفصول أتفقد أحوال المدرسة وإذا مجموعة من الطلاب يحملون تلميذاً كُسرت ساقة في الفناء.

على الفور جاء الطبيب الذي أكد ضرورة وضع جبيرة في المستشفى. وإذا بالأم تأتي باكية، وتقول في ندم:

– أنا السبب لقد دعوت عليه أن تنكسر قدمه بسبب لعب الكرة طول اليوم.. سامحني يا ابني.. واحتوت التلميذ بين ذراعيها وظلت تبكي.

(٦٢)

دخل الطالب غرفتي غاضباً، وقال:

– كيف للمعلم يسب ويلعن.. ويتفوه بالكلمات النابية كيف ذلك؟

وعندما سألت قال المعلم:

– من حقي ألعنهم وأقول ما أشاء وأضربهم بشدة حتى يستجيبوا للأخلاق الكريمة، ويتعلموا.

نظرت إليه في عجب، وقلت له:

– أخطأ المعلم وأصاب الطالب.

(٦٣)

أثناء زيارتي لقسم الحاسب الآلى كنت أشعر بسعادة والتلاميذ الصغار يبحثون عن المعلومات ويصممون مشاريعهم العلمية مع أحدث برامج التكنولوجيا، إلا طالباً كان في نهاية الفصل مستغرقاً في ألعاب لا تمت للدرس بصلة.

يبدو أنه أصيب بالهلع حين فاجأته، وسألته عما يفعل. لزم الصمت قليلاً ثم قال بحزن:

– بابا يمنع عني استخدام اللاب توب، ووجدت هنا فرصتي في ممارسة هواياتي مع سباق السيارات.

وفي اليوم التالي خصصت يوماً لجميع التلاميذ لممارسة هواياتهم الخاصة في الكمبيوتر وفي الألعاب الأخرى، واتفقنا أن يكون هذا Fun Day.

(٦٤)

كلما تحدثت مع مدير المنطقة، وسألني عن مشكلة ما وقبل أن أشرح تفاصيلها يقول لي بثقة:

– أجل أعرف أنك أحسنت التصرف في ذلك.. وأنت؟

ويقص لي المدير وقائع الحدث وأنا في دهشة كيف تسربت إليه هذه الأفكار؟ ولذلك قررت أن أبحث عمن يقوم بدور "رأفت الهجان" بالمدرسة.

(٦٥)

صحت بحدة في وجه المعلمة التي أهملت في تصحيح كراسات الطلاب.. وهددت.. وأنذرت.. وتوعدتها بإنهاء عملها بالمدرسة.

كنت في الحقيقة غاضباً وثائراً، ولكن عادت المعلمة باكية وقدمت لي ورقة كتبت فيها: أقدم استقالتي، لأن المدير جرح كرامتي ومشاعري وتحدث معي بطريقة غير لائقة.

وفي نهاية اليوم قدمت اعتذاري لها، فقد قمت باستغلال مركزي الأدبي في جرح مشاعرها.

(٦٦)

جاء أحد المدرسين المسئول عن نتائج امتحانات المدرسة، وقدم لي ورقة امتحان لطالب راسب، وقال:

– اعتدنا كل عام أن نساعد هذا الطالب، ونضيف درجات له لينجح.

وسألت: لماذا هذا الطالب؟

– والده من كبار رجال الدولة، ويساعدنا جميعاً في المشاكل العامة، ويخرجنا من أزمات مع الإدارة المالية، وفي المقابل علينا نجاح ولده.

وشعرت بحزن شديد.. لسطوة المال والنفوذ على قرارات المدرسة.. ونظرت إلى ورقة امتحان الطالب، واعتمدت نتيجه رسوبه، وقلت للمعلم:

– لا محسوبية في العلم.. وليس هناك من يسيطر على شرف المهنة بنفوذه أو سلطانه أو أمواله.

(٦٧)

قال لي في يأس: المعلم هالك وضحية العصر، وشهيد في معركة يقف فيها وحيداً.

وأدركت لماذا وقف الرسول – عليه الصلاة والسلام – في وجه أذى قريش وحده وتحمل! وكيف عانى المسيح من القتلة والخونة! وكيف وقف سقراط أمام المحكمة ليشرب كأس السم وحيداً في شجاعة ودون تردد!

فهل كتب على المعلم أن يعاني القهر والهوان، ويشرب كل يوم كأساً من السم؟

(٦٨)

– هذا الطالب غبي جداً عليه أن يبحث عن مهنة يرتزق منها أفضل من التعلم.

وقلت للمعلم: احذر لأن كثيراً من المعلمين اتهموا توماس أديسون بالغباء وأصبح من كبار العلماء.

(٦٩)

انتصف النهار وانكسرت حدة توهج الشمس، وانتهى اجتماعي مع مجلس إدارة المدرسة في يوم من أيام الصيف، قبيل بدء

الدراسة وتطلعت من نافذة مكتبي فإذا الصمت يغلف الحديقة والجدران ومقاعد الفصول ولا تسمع سوى حفيف الأشجار وزقزقة العصافير، وشعرت بحزن يتسرب إلى قلبي وقلت:

– مدرسة دون تلاميذ ليست إلا خرائب ومبان بلا معنى أو حياة.

(٧٠)

جاء أحد الطلاب، وقال:

– أنا رئيس مجلس إدارة الفصل وأريد أن تسمح لنا بالاجتماع لمناقشة مشاكل زملائنا مع المعلمين.

وقاطعت الطالب وكيلة المدرسة في ضيق ورفض، وقالت:

– كفاكم عبثاً تريدون الهروب من الحصص الهامة لا اجتماع ولا مناقشات، أنا هنا مسئولة عن مشاكل الفصول.

ونظرت إليها معاتباً، ثم قلت للطالب:

– يمكنكم اتخاذ ركن من المكتبة خلال فترة الراحة لمناقشة أموركم، وأرسلوا لي تقريراً بما سوف تقومون به.

ابتسم الطالب وصافحني في ثقة، ونظر إلى الوكيلة بانتصار وانصرف، وإذ بها تجلس أمامي، وتقول:

– أشعر بالإحباط فقد ساندت الطالب ضدى.

قلت لها موضحاً:

– نحن لا نحشو عقول الطلاب بالمعلومات، ولكن نحن نساعدهم على تطوير شخصياتهم، لنعد قادة المستقبل.

(٧١)

أن تستحوذ على مشاعر الطلاب.. تتعاطف معهم.. تساندهم.. تعبر عن حبك.. ويمتد خارج ذاتك وتوفر لهم مناخاً متسم بالأمان والحرية والإبداع، وتحفزهم للعلم والقراءة وإتقان المهارات المختلفة، فتلك هي ثروتك الحقيقة من الدنيا.

قال المعلم: ومن يتعاطف مع قضايا المعلم في هذا الزمن العنيف؟

(٧٢)

سألني مبتسماً:

– هل حاز الطلاب إعجابك؟ لقد أجابوا على كل الأسئلة التي وجهتها لهم.

قلت له: ليس المهم أن تسأل أنت.. بل على الطالب أن يطرح تساؤله عليك ويعرض الأفكار ويطلقها في حرية.. ويناقشها معك.. ويختلف.. أو يتفق.. يقبل أو يرفض.. يقتنع أو لا يقتنع فهو يملك بادرة الحوار العلمي ولا قهر في العلم.

(٧٣)

كان معلم التربية الإسلامية يناقش الطلاب في فضائل عمر بن الخطاب تحدث بعضهم عن مناصرته للحق.. العدالة بين البشر..

وكيف كان يفترش العراء، وينام في أمان ثم وقف أحد الطلاب، وقال:

– عمر بن الخطاب نشأ راعياً لأبيه الخطاب، ولم ينس ذلك أبداً ويجلس بين الناس في بساطة بعد أن تولي الخلافة، وأصبح أميراً للمؤمنين، ويقول:

– لقد رأيتني أرعى الغنم لأبي، وها أنا ذا أنظر، فلا أرى فوقي إلا رب العالمين.

ثم ينظر إلى ثروات كسرى من الحلي والذهب التي استولى المسلمون عليها، ويبكي قائلاً:

– لا أخشى على المسلمين إلا من إغراء الثروات.

واشتد إعجابي بملاحظات الطالب، حين قرن بين تواضع أمير المؤمنين وخوفه من الثروات، فيا ليت زعماء العالم يقتدون بهذا النموذج الرائع.

(٧٤)

قرأ لي معلم التاريخ هذا النص، فقال:

يقول المقريزي في كتابه: "إغاثة الأمة بكشف الغمة "عن سبب انتشار الفساد في مصر" "إن السبب الأول وهو أصل هذا الفساد ولاية الخطط السلطانية والمناصب الدينية بالرشوة كالوزارة والقضاء ونيابة الأقاليم وولاية الحسبة وسائر الأعمال، بحيث لا يمكن التوصل

بشيء منها إلا بالمال الجزيل، فتخطى لأجل ذلك كل جاهل ومفسد وظالم وباغ إلى ما لم يكن يؤمله من الأعمـــال الجليلـــة والولايـــات العظيمة.

وعاد المعلم يقول ساخراً: "أخشى أن يتهم المقريزي بالتحريض ضد النظام".

ضحكت ساخراً أيضا، وقلت له:

– أرسل "لفت نظر" إلى المقريزي، ليكون حذراً في حديثـــه الـــذي سيشعل ثورة ضد الفساد.

(٧٥)

خلال تجوالي في معرض الفن التشكيلي لطلاب المدرسة همـــس أستاذ مادة الرسم، وقال لي:

– طلاب عباقرة مبدعون خلقت منهم فنانون تشكيليون.

قلت له: ولكن مادة الرسم ليس لها كتاب نظري يتحدث عن تاريخ هذا الفن في مصر والعالم، ويستعرض إنجازات رواده.

وصمت المعلم، ثم قال:

– أعتقد أنه ضروري حقاً أن يكون لمادة الرسم كتاب.

– سوف يثري عقول الطلاب من خلال الصورة والنصوص وتاريخ، وسير وتراجم مجموعات كبيرة لا يعرفها الطلاب، ومنـــهم محمـــود مختار وجورج البهجوري، وتحية حليم وأحمد نوار وأحمد زغلـــول،

وإنجي أفلاطون ومحمد إسماعيل وأحمد شيحا، وزهرة أفلاطون وفاروق حسني، وآدم حنين وأحمد عبد الوهاب وحامد سعيد، وحسن سليمان وسيف وانلي جاذبية سري، وحسين بيكار وحامد ندا وراغب عياد وأدهم وانلي، ومحمد ناجي وكامل مصطفي وشفيق رزق ومحمد صبري وصلاح طاهر وأحمد عبد الفتاح وغيرهم.

ونظر لي المعلم في دهشة وانصرف في الحال.

(٧٦)

جلس معلم الموسيقى حزيناً يائساً، وقال:

– سيادتك ممكن تساعدني نحن في حاجة إلى أجهزة إلكترونية صوتية وإلى بعض من آلات العزف الموسيقى، وكل عام تقولون العام القادم أولادنا لا يتعلمون شيئاً في الموسيقى، إنهم يلعبون وحصص الموسيقى دائماً يتم التعدي عليها من قبل حصص المواد الأخرى. لماذا؟ الموسيقى مادة هامة تتصل بالروح والمشاعر والفكر فلماذا نهملها؟

فكرت فيما طرحه فنان الموسيقي وقلت له:

– اكتب كل ما ذكرته لرفعه حالاً إلى وزير التربية والتعليم.

(٧٧)

صرخ ولي الأمر غاضباً: ليس من المعقول ما درسناه نحن في المدارس هو نفسه الذي يدرسه الطالب بعد عشرين عاماً.

وعرض أمامي كتاب اللغة العربية والمواد الاجتماعية والرياضيات، وقلت له ساخراً:

– تقصد ما درسناه نحن من خمسين عاماً.. كيف ذلك؟

(٧٨)

صاحت الأم أمامي في انفعال:

– ابني يتعلم السلوك السيئ من المدرسة.. والألفاظ النابية التي نسمعها بين السوقة والعامة في الشارع.. أين دور المدرسة؟

وفي اجتماعي مع الإداريين والمعلمين قلت لهم:

– يجب أن تكون المدرسة حصناً للطلاب ضد الفساد في المجتمع، بل يجب علينا أن نفكر في تغيير العقول والسلوك بالقيم قبل تدريس العلوم.

(٧٩)

جلست الصغيرة تبكي.. فقدت نقودها التي كانت ستشتري بها بعض الحلوى.. فمنحتها نفس القيمة المالية فابتسمت ومضت باتجاه مقصف المدرسة. وفكرت لماذا لا نؤسس صندوق الطالب التعاوني من تبرعات أولياء الأمور والطلاب والهيئات العلمية والمعلمين.

(٨٠)

أسعدني الحظ أن أكون مصاحباً للوزير في جولته أثناء امتحانات الثانوية العامة بالمدرسة. وجدته يتوقف أمام طالبة حائرة، لأن قلمها الأزرق لا يكتب فأخرج الوزير قلماً من جيبه، وقال لها:

– هديتك مني لتكتبي وتنجحي.

وسمعت أحد المعلمين يقول لي:

– أكيد قلم ذهبي..

قلت له:

– يكفي أنه من الوزير!!

(٨١)

في زيارتي لأحد الفصول وجدت معلم التاريخ يكتب على اللوح الأبيض:

"الدرس الأخير"

ثم قال للتلاميذ الصغار:

– هذا هو درسي الأخير وغدا سوف أسافر إلى خارج مصر للعمل، صدقوني لم أختر السفر ولكن الغربة اختارتني.. والشقاء رشحني.. جفف دمعه سالت من عينيه، وقال:

– أحبكم يا أبنائي.. وأحب مصر وتاريخ مصر وعظمة مصر وشعبنا الأصيل، ولكن كتب على الفقراء الهجرة والأغنياء يستمتعون بخيرات بلادنا.

وبدأت أسمع نهنة الصغار في بكاء صامت.. وأخرجـــوا أوراق بيضاء كتبوا عليها كلمات حب ورسومات والتفوا حولـــه وهـــو يعانقهم فرداً فرداً.

خرجت والدموع تترقرق في عيني.

(٨٢)

سألتني التلميذة الصغيرة:

– يعني إيه "ثورة".. يعني إيه مظاهرات؟ نفسي أفهم؟

ابتسمت وقلت لها:

– "ثورة" يعني احتجاج، يعني رفض.

قالت الصغيرة ضاحكة: "والله مش فاهمة"!!

وأدركت أني سوف أتورط مع التلميذة في حوار سياســـي لا أعرف نتائجه.

فقلت لها مفسراً :

– مش أنتِ أحيانا ترفضين طعام لا يعجبك.

قالت الصغيرة:

– آه تقصد أعمل إضراب وتمرد..

– ما أنتِ عارفة كل حاجة.

– أيوه بس كنت بسألك..

(٨٣)

"وقد كان من نتائج الحملة الفرنسية على مصر إيقاظ الوعي القومي للمصريين وإثارة إحساسهم بالوطنية والدفاع عن مصر". وضح ذلك من خلال دراستك لنتائج الحملة الفرنسية.

كان هذا نص أحد أسئلة امتحان مادة التاريخ للثانوية العامة، ووقف الطلاب أمامي معترضين، وقال أحدهم:

– إن الشعب المصري من قديم الأزل لديه إحساس وطني عال.

وقال طالب آخر بحماس:

– قام الشعب بثورات ضد الطغاة قبل الحملة.

– الشعب قاد ثورة ضد الوالي خورشيد باشا وعزلوه من منصبه.

وفي الحقيقة شعرت بسعادة غامرة، لأن الجيل الجديد أكثر ثقافة ووعياً وقدرة على التفكير النقدي. ثم قال أحد الطلاب ساخراً:

– يبدو أن من وضع الامتحان لم يقرأ تاريخ الشعب المصرى.

وسمعت صوتاً آخر يقول:

– لماذا لا نقرأ تاريخ بلادنا بشغف؟

(٨٤)

قال لي في أسى:

– لماذا يبدو المعلم في بلادنا يائساً.. مهموماً.. ضائعاً يشكو الغـــلاء الفاحش، ويقتل نفسه في الدروس الخصوصة دون رحمة.

وتذكرت ما قاله أحمد شوقي:

قم للمعلم وفه التبجيلا

كاد المعلم أن يكون رسولا

وتخيلت كلمة "قتيلا" ألا تكون أكثـــر واقعيـــة مـــن كلمـــة "رسولا"؟

(٨٥)

أدركت أنه يحاربني في الخفاء.. ليكسب مواقف أمـــام مـــدير المنطقة.. سألته:

– كيف تبيح لنفسك ما هو خارج سلطاتك ومسئولياتك، وتحاول دائماً تدمير إنجازات المدرسة؟

وقف حائراً لا يدري ماذا يقول. وانصرف في صمت يطـــارده الهوان والسقوط.

(٨٦)

سمعت أحد الطلاب يقول لزميله:

– أسوأ ما في حياتي المدرسة!!!

ورد الآخر في ملل وضيق:

– وأنا كذلك كم أمقت الاستيقاظ مبكراً والجلوس أمام مدرسين قساة القلب، دائما يصيحون ويغضبون ويهددون.

وتأملت الموقف.. وفي اجتماعي مع المدرسين قلت لهم بحزن:

– إن اللعنة سوف تطاردنا إلى الأبد، إن لم نغير من أساليبنا التقليدية ونواكب الفكر التربوي الحديث.

(٨٧)

حقا أمر مضحك.. نعلن الحرب على الدروس الخصوصية وطلابنا جميعاً منغمسون فيها.. والمدرسون يمارسونها جهاراً. فلماذا لا تجيز الوزارة قانون يحدد القيمة المالية للدرس الخاص؟

وفجأة قالت السكرتيرة:

– مكالمة تليفونية من مكتب الوزير.

وسمعت صوتاً من الطرف الآخر يقول:

– أرجوك ابحث لي عن مدرس لغات خبرة، ليعطي ابنة الوزير في البيت درسا خصوصيا.

وكانت جدران الغرفة تضحك ساخرة من مواقفنا.

(٨٨)

لقد انتقد ابن خلدون أسلوب العقاب الذي كان سائداً في عصره وطلب من المعلمين استخدام الرحمة واللين مع الطلاب، فقال:

– ينبغي للمعلم في متعلمه والوالد في ولده ألا يستبد في التأديب.

واعتبر أن مجاوزة الحد في العقاب له أضرار على الطلاب، ويعمل على إفساد أخلاقه، وبذلك لا يتحقق الهدف من التعليم، ويقول:

– من كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أوالخدم، سطا به القهر وحمل على الكذب والخبث.

وأغلقت أوراق مقدمة ابن خلدون وفكرت:

– هل لو عرف ابن خلدون جيل الإنترنت والهواتف المحمولة والتابلت، وعصر العنف والفساد والإرهاب هل كان سيقول ذلك؟

(٨٩)

بعد عرض مسرحية "صقر قريش" هنأت الطلاب على الأداء الرائع وتجسيد صورة عبد الرحمن الداخل – مؤسس دولة الإسلام في الأندلس – اقترب مني أحد الطلاب، وسألني:

– هل يمكن في يوم ما للعرب المسلمين استرداد بلاد الأندلس، هذا الحلم الضائع والفردوس المفقود؟

وارتعدت صفحات التاريخ تزأر في العراء على صليل السيوف وغبار حوافر الجياد، وصهيل الفتوحات.

(٩٠)

بعد أن انتهى المعلم من إلقاء الضوء، على حياة ابـــن بطوطـــة ضحك أحد الطلاب، وقال:

– كيف سافر من بلد إلى آخر ومن ميناء إلى ميناء ومن قارة لقـــارة دون أن يحصل على تأشيرة دخول أو يحمل جواز سفر؟

(٩١)

دهشت لأن هواتف الطلاب المحمولة كلها محـــشوة بالأغـــاني الأجنبية الصارخة، ولا توجد أغنية من الفن المـــصري الأصـــيل.. فسألت أحدهم عن ذلك، فقال مبتسماً:

– لا أدري كيف تتحملون سماع أغنيات عبد الحليم أو أم كلثوم أو عبد الوهاب أو فريد الأطرش؟ الغناء الأجنبي فكر ووجود وحيـــاة والغناء العربي دموع ويأس وتهديد وخيانات وبذاءة.

(٩٢)

جاءت مكتبي باكية وكتابها بين يديها مبعثـــر الأوراق ممـــزق الصفحات، وقالت:

– مزقوا كتاب العربي ولا توجد نسخ أخرى في مخزن المدرسة.

وتناولت منها كتابها وبدأت في علاج التمزق بلصق الصفحات وترتيبها، وكانت كثيرة استغرقت مـــني ســـاعات حـــتى شـــعرت السكرتيرة بالضجر، وقالت:

– دع هذه المهمة لي فليس ذلك الأمر التافه من اختصاص المدير.

نظرت إليها، وسألتها:

– أتذكرين عندما كان تولستوي يرتق نعل الخادمة، وهو الذي يمتلك القصور والأراضي والمزارع ويعمل في أرضه آلاف المزارعين؟

وسألتني السكرتيرة في بلاهة:

– تولستوي ده مين؟

(٩٣)

قال سارتر: الإنسان محكوم عليه بالحرية.

وقررت أن أضيف: والمعلم محكوم عليه بالشقاء الجميل.

(٩٤)

قال لي معلم الفلسفة:

– اذا شرب سقراط كأس السم وذهب ضحية الفساد؟

قلت له:

– سقراط هو المعلم الذي جعلنا جميعاً نحتسي كأس السم كل يوم، ونبتسم ونقاوم.

(٩٥)

كانت الندوة حول أدب نجيب محفوظ وصورة مصر القديمة، من خلال رواياته، وإذ بطالب يقول لنا:

– ماذا قدم لنا نجيب محفوظ سوى صور مشوهة عن المرأة المصرية، وأرض مصر العظيمة كان يسكنها مجموعة من القوادين والفتوات، فلا أعرف كيف نال جائزة نوبل؟

وتملكنا الصمت جميعاً وسمعت من يهمس لي:

– الطالب لم يبتعد عن الحقيقة.

(٩٦)

التف حولي مجموعة طلاب وناقشوني في شجاعة المتنبي.. وعبرت عن إعجابي ببطولاته الخارقة كما وصفها في شعره، وقال:

الخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفُني والسيُف والرمحُ والقرطاسُ والقلمُ ولكن أحد الطلاب اعترض بشدة وقال:

– أنا أعتبر المتنبي متسولاً على أبواب الأمراء والحكام وشعره لا يساوي شيئاً، لأنه شعر النفاق والتذلل من أجل عطايا السلطان.

وقال طالب آخر: لماذا تقول الكتب عنه شجاع وبطل وشاعر لا مثيل له.. إنه أفاق وكاذب وأشعاره زائفة.

ثم قال طالب آخر:

– هل عرفتم كيف كانت نهايته.. إنها الدلالة على سقوطه الحتمي.

(٩٧)

في صورة نادرة خلال مؤتمر تربوي ظهرتُ بجوار الوزير أثناء لقاء صحفي له. وجاء من يبارك لي تواجدي بجوار الوزير، وقلت لهم مبتسماً:

– صداقة طويلة بيني وبينه أيام عشناها معاً.

وفوجئت كل يوم من يقدم لي شكوى أو التماس، ويرجوني أن تصل إلى يد الوزير لأنه صديقي. وشعرت بحيرة شديدة ولكني جمعت أوراقهم وحفظتها داخل درج مكتبي، وقلت إني قد أرسلتها له.

وحين جاء الوزير في أحد زياراته لتفقد الامتحانات، وبينما كان يحتسي فنجان قهوته في مكتبي إذ بأحد المدرسين يذكرني بما فعلته لمظالم المدرسين وشكواهم.

وشعرت بالخجل حين سألني الوزير:

– أية مظالم؟

واضطررت أن افتح درج مكتبي وأقدم له الأوراق فأخذ يتفحصها ويوقع عليها ثم تسلمها منه سكرتيره الخاص، وقال الوزير:

– لا يوجد مدرس في الوزارة لديه معاناة.. انتهى الظلم.. وكل مشاكل المعلمين لها حلول.

وبعد انصراف الوزير التفوا حولي جميعاً يمطرونني بالقبلات والشكر العميق لسرعة إيجاد الحلول لمشاكلهم. وأنا لا أدري كيف حدث ذلك؟

(٩٨)

كانت المسابقة عن علماء العرب والمسلمين وإذ بورقة بحث غريبة أثارت إعجابنا ودهشتنا يعرضها معلم التاريخ. كتب الطالب: من قتل جمال حمدان؟ من قتل يحيى المشد؟ وسميرة موسى؟ إنهم الذين

اغتالوا عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن أبي طالب. وهم الذين حرقوا متاحف مصر وأشعلوا النار في الشجر واصطادوا الأبرياء بالرصاص وسرقوا الحلم من شباب مصر في ٢٥ يناير ٢٠١١.

وقررنا جميعاً حجب الجائزة عن الطالب، بحجة أنه تطرق لموضوعات أخرى بعيدة عن موضوع البحث، ولكننا أيقنا إننا نواجه جيلا واعيا بقدراته وأفكاره وواقعه.

(٩٩)

قال الطالب باكياً:

– أنا ظُلمت.. فهل تقبل أن يظلمك الآخرين؟

وأدركت أن الأمر يحتاج إلى نقاش طويل.

(١٠٠)

ظلت تبكي كوردة في مهب الريح وتقول:

– المعلمة طردتني من الفصل لأني نسيت أغلق هاتفي الجوال، وتعالى الرنين حتى آثار الضحك والضجيج.

– ألا تعلمين أن الموبايل ممنوع؟

– كنت أنتظر مكالمة من أمي، لأنها سافرت إلى العمرة وأريد الاطمئنان عليها.

(١٠١)

كان الحفل السنوي رائعاً قدم فيه الطلاب نـــص "هاملـــت" لشكسبير، ودارت آلات التصوير وأجهزة الموبايل تصور العـــرض الكبير. وبعد الانتهاء جلسنا نسترجع الأحـــداث ونـــضحك وإذا بسيدة تقتحم المكان صارخة:

– كيف تنتهي المسرحية قبل أن أرى ابني وهو يمثل كيف ذلك؟

واستغرقها البكاء.. ونظرنا في وجوه بعضنا وأدرك البعض أننا فتحنا ستار المسرح ساعة قبل الموعد المحدد.

وسمعت أحدهم يقول:

– المسرح التزام وما قمنا به فوضى لا نظير لها.

(١٠٢)

اقترب مني المعلم المسئول عن إعداد شهادات الطلاب آخـــر العام، وقال في تردد:

– هذا الطالب راسب، ولكن نريد إمضاءك بإضافة بعض الدرجات لينجح.

وحين عرفت اسم الطالب أدركت أنه ابني، والمعلم يريد إنقاذه بكل وسيلة، ولكني صحت غاضباً:

– العلم حرية.. واحترام للأفكار.. العلم نزاهة وتقدير موضـــوعي، ولا محاباة أبداً.

وفي البيت واجهتني زوجتي بصراخها قائلة:

– أنت مدير المدرسة، وابنك يرسب في الامتحان لا أصدق ذلك!!

(١٠٣)

جلس أمامي معلم الفلسفة وقال بحزن:

– ثلاثون عاماً وأنا هكذا دون أسرة أو أولاد أعيش حياة عابثة مملة يقتلها الروتين والهموم اليومية، فأين حياتي كما قال ألبيركامو؟

وأنا أعرف أن زوجته توفيت ولم ينجب أطفالاً، وعاش وحيداً يرى الطلاب نبع الأمل والحب. ودمعت عيناه ونهض قائلاً:

– سامحني كنت مخنوقاً بعذابي.

وابتسم حين التف التلاميذ حوله واحتواهم ومضى معهم ضاحكاً.

(١٠٤)

رحبنا بوكلاء الوزارة ومدير المنطقة في ندوتنا حول "الأدب والتغيير الاجتماعي"، تطرق رئيس قسم اللغة العربية إلى شعراء المقاومة وأدباء النضال السياسي، وذكر منهم نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم وعبد الرحمن الشرقاوي، ويوسف إدريس وعبد الرحمن الأبنودي وفؤاد حداد، ومحمود درويش وتوفيق زياد، وفدوى طوقان وفاروق جويدة ونزار قباني وغيرهم.

كنت سعيداً لثقافة المعلم حتى قاطعه أحد الطلاب بورقة في يده، وقال:

– لقد أغفلت أدباء التراث الذين صمدوا أمام قهر الحكام ومنهم شرف الدين أبو المكارم بن أبي سعيد بن مماتي مؤلف كتاب: "الفاشوش في حكم قراقوش".

وانفجر الجميع في الضحك.. ولكن الطالب عاد وقال:

– أعتقد لو كتابه هذا نشر في عصرنا لتم مصادرة الكتاب وشنق المؤلف الذي قال عن الحاكم الظالم قراقوش:

"إني لما رأيت عقل قراقوش محرفة فاشوش.. قد أتلف الأمة.. والله يكشف عنهم كل غمة.. لا يقتدي بعالم.. والشكية عنده لمن سبق.. ولا يهتدي لمن صدق.. ولا يقدر أحد من عظم مترلته.. أن يرد على كلمته.. ويحكم حكما ما أنزل الله به من سلطان".

ولم أستطع أن أقرر هل أبدي إعجابي بالمعلم أم بالطالب؟

(١٠٥)

أثناء عرض الطلاب لرواية "العجوز والبحر" للأديب أرنست همنجواي كان الدرس الأخلاقي على لسان الطالب يقرر:

– ليس المهم أنك حاولت وفشلت، ولكن المهم أن لا تنهار أوتيأس ولابد أن نقاتل من أجل تحقيق طموحاتنا البريئة وأهدافنا السامية.

واقترب مني المدرس المسئول قال:

– مصر لن تنهزم.. مصر تقاتل.. أليس كذلك؟

(١٠٦)

قرر الطلاب أعضاء اللجنة الثقافية إرسال دعوة للشاعر فاروق جويدة للاحتفاء بقصائده الوطنية والعاطفية والإنسانية. وفوجئت برئيس قسم التربية الإسلامية يأتي معترضاً ويقول:

– يا حضرة المدير.. كيف يستمع طلابنا إلى شعر الغزل الماجن الذي يكتبه هذا الشاعر؟

وابتسمت وقلت له:

– هل قرأت أشعاره؟

قال المعلم:

– لا ولكني أعرف ماذا يقول.

وفي الحفل كان صوت الشاعر فاروق جويدة يغني قصائد الحب والانتماء إلى الحبيبة مصر.

واقترب مني المعلم ذاته وقال:

– ما أروعه شاعر.. وما أجدر أن يُدرس شعره للطلاب.

(١٠٧)

كانت مأساة غريبة.. وفاجعة مبكية حين لقيت الأسرة حتفها في حادث دامي. ونجا طفل وحيد عاش مع خاله، ولكنه جاء يوماً باكياً

واحتضن إحدى المعلمات، وتوسل إليها أن يعيش معها أويظـــل في المدرسة.

قال الطفل:

– لا أحد يحبني وزوجة خالي تضربني، أريد أن أعيش في المدرسة.

وفكرت لماذا لا ننشئ قسماً داخلياً في المدرسة يكون بمثابة بيـــت الحنان والحب للطلاب اليتامى ويشرف عليه تربويين يؤدون دور الأم والأب؟

(١٠٨)

كانت ندوة المدرسة عن "أهمية أن تكون مثقفاً".. تحدث فيهـــا أحد المعلمين عن مصادر الثقافة المتاحة الآن وأهمية الكتاب في حياتنا وكيف تضاءل دور المثقف في المجتمع ومواجهة قضايا الناس.

وأثناء النقاش قالت طالبة في حماس وتأثر:

– تتحدثون عن آية ثقافة؟ هل تلك التي تنتشر في وسائل الإعـــلام؟ هل تلك التي تسيطر على عقولنا نحن؟ أم ثقافة الطبقات العليا الـــتي تنهش في قلب الوطن دون حساب أو رقيب.

إني أطالب برفض كل تلك الثقافات السلبية ومحاكمة كل من يدعي أنه مثقف، لأنه وقف عاجزاً مشلولاً لا يساهم في توعية أبناء الوطن.

وقال طالب بسخرية:

– لم نسمع عن ثقافة ما حركت شعب أو فجرت ثورة.. ثقافتنا كهلة لا قيمة لها في مجتمع يطمح إلى الأعلى دائما.

(١٠٩)

كان مؤتمر وزارة التربية حول "تطوير التعليم وتوظيف التكنولوجيا الحديثة". وعلمت أن رئيس الجمهورية والوزراء وأساتذة البحث العلمي ورواد التربية وبعض من علماء مصر سوف يحضرون ليطرحوا آراءهم.

وقررت أن أتحدث بصراحة تدهش الحضور عن مشاكل التعليم والمنهج والمعلم، وأكشف كل الخبايا وأنشر أمامهم مشاكلنا بوضوح ودون خوف.

وحين تحدث الرئيس كشف كل شيء.. واعترف بواقع المعلم المتدهور وسياسات التعليم الفاشلة ولم أجد ما أقوله، وظللت أصفق بفرحة وأمل كبير في تطوير التعليم في بلادنا.

(١١٠)

في حفل آخر العام.. شاهدت تلاميذ يجلسون في عالم البراءة.. زهور مبتسمة نقية.. عصافير تغرد من أجل الحرية.. استعراضات جميلة.. أغنيات وطنية وصوت كالملائك ينشد: تحيا مصر.. تحيا مصر.. تحيا مصر.

(١١١)

كان هذا يومي الأخير في المدرسة.. وقررت أن أستقيل وأتفرغ للتأمل والذكريات والقراءة والأدب.. زرت كل الفصول.. التفوا حولي جميعاً طرحوا بعض المشاكل.. وتحدث بعض المدرسين عن أماني جديدة للعام القادم.. وجاء معلمو الموسيقي يزفون لي وصول معدات وآلات موسيقية حديثة ثم دخل بعض الإداريين مكتبي يحملون شهادة تقدير للمدرسة موقعة من وزير التربية والتعليم.

أطبقت على الورقة التي فيها استقالتي ومزقتها، وأسرعت للاحتفال بتفوق المدرسة واختيارها من المدارس المتميزة التي رشحهتها هيئة اليونسكو للإشراف عليها.

(١١٢)

وبعد أربعين عاما في مجال التدريس.. ماذا يمكن أن أقول..؟ لقد تعبت كثيراً وكافحت كثيراً وقاومت كثيراً من أجل تحقيق قيم الخير والحب والجمال والحرية. وخاطرت بطرح أفكار جديدة وتحديت القهر.. ووقفت ضد العقول الحجرية التي لا تعرف الفكر أو الثقافة أو الفنون الرفيعة، وكل ما ربحت في هذا الرحلة أن الطلاب والمدرسين يتذكرون أنهم عاشوا فترة إنجازات إبداعية مع معلم ومفكر تربوي ومثقف ومدير مزج العلم بالثقافة والقيم الأخلاقية والانتماء للوطن.

(١١٣)

صاح مدير المنطقة التعليمية في وجه أحد المعلمين الذي جـــاء متظلماً من قهر ناظر المدرسة، وقال:

– احمد ربك إنك تعمل في مكان يتمناه الآلاف مثلك.

ورد المعلم في كبرياء:

– لا قيمة للعلم إذا أُهينت كرامة المعلم.

وحين خرج المعلم منكسر الخاطر قلت لمدير المنطقة، وأنا أشعر بالحزن:

– يا أستاذنا الفاضل.. المعلم كتر.. المعلم ثروة قومية يجب أن نرعاها مادياً ومعنوياً.

ضحك الرجل بهستيريا وقال:

– أتصدقه؟ إنه يكتر الملايين من الطلاب الأغبياء.

(١١٤)

قالت الأم والدموع تنساب من عينيها:

– أعلم أن ابني مشاغب.. ويخالف قانون ونظام المدرسة ويـــستحق العقاب، ولكن ليس إلى حد الضرب المبرح، وظهور كدمات في وجه الولد.

شعرت بالحزن العميق واستدعيت المعلم لمعاقبته، فجلس المعلم منهاراً وقال:

– كاد الطالب أن يتجاوز حده معي فكان لابد من عقابه بشدة.

وفي اليوم التالي تحدثت مع مسئول التدريب والتطوير والتنمية البشرية عن عدة ندوات حول الـتحكم في الأعـصاب، وكيفيـة السيطرة على الغضب وتأسيس علاقات تربوية مع الطلاب.

(١١٥)

قال لي وزير التربية في أحد اللقاءات التربوية:

– أنت ولدتُ معلماً.. ثم أصبحت كاتباً.. وفناناً وظفـت ثقافتـك وتأملاتك من أجل الارتقاء بذاتك ثم بالمعلم والطالب.

وجففت دمعة أخرى تدفقت في حنايا القلب.

(١١٦)

كانت مشكلة كبيرة أن يُطلع المعلم على تقريره السنوي.. فقد أصاب البعض نوعا من الإحباط.. والآخر تزمر وغضب.. والآخـر رفض تقديره وأكد أنه يستحق التميز والتفرد.

وفي العام التالي قدمت كشفاً لكل معلم بإنجازاتـه وسـلبياته وعهدت إليه بكتابه تقريره بنفسه. رجعـت الأوراق لي خاليـة ولا توجد سوى عبارة واحدة:

"الرجاء أن يكون التقرير من قبل سيادتكم ولا خبرة لنا به".

(١١٧)

اقتحم مجموعة من طلاب الثانوي مكتبي في لقاء حاسم.. صرخ أحدهم:

– يعني إيه علم.. مدرسة.. منهج.. كتاب.. دراسة.. يعني إيه نجاح.. رسوب.. مذاكرة.. مستقبل؟

وشعرت أني في مواجهة امتحان صعب.. فقال طالب آخر بحزن:

– ما معنى المدرسة ونحن لا نشعر بالآمان في وطننا.. قنابل تنفجر.. حقائب السيدات تُخطف.. أجهزة موبايل تُسرق من أيدي الطالبات كل يوم في الشوارع.

– تعبنا.. ونشعر بالخوف.. بالحزن.. بالألم.. نخاف على أنفسنا وأهلنا وأصحابنا..

– لا تعلمونا ولكن امنحونا وطنا نشعر فيه بالأمان!!!

– لاعلم دون أمان.

وشعرت بالانكسار.. واحتويت الطلاب إلى صدري..

(١١٨)

جاءت التلميذة الصغيرة باكية.. وقالت:

– حقيبتي ثقيلة لا أستطيع حملها.. أرجوك ابحث لنا عن حل لهذه الكتب الكثيرة كل يوم.

وجلسنا جميعا نفكر في تلك القضية.

صور بعض الأعلام الذين ذُكروا في اليوميات

يوسف السباعي

يوسف إدريس

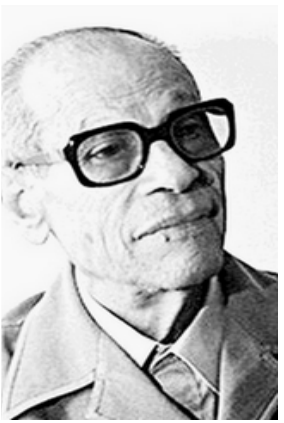

نجيب محفوظ

نابليون بونابرت

المتنبي

البير كامي

فاروق جويدة

تولستوي

محمود مختار

علي مبارك

أحمد زويل

احمس

فاروق حسني

الحاكم قراقوش

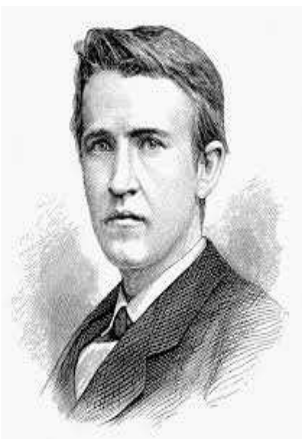

توماس اديسون

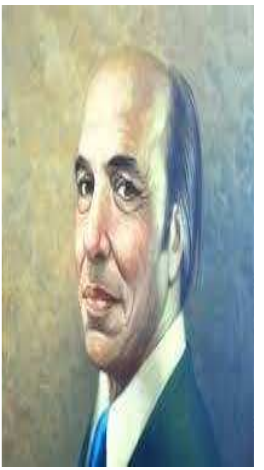

حسين بيكار

أحمد نوار

شوقي وحافظ

علماء مصر

خورشيد باشا

شكسبير

طه حسين

مصطفى محمود

نزار قباني

يحيى المشد

سميرة موسى

علماء مغتالون

محمود درويش

كامل الشناوي

فؤاد حداد

ابن بطوطة

ابن خلدون

ابن سينا

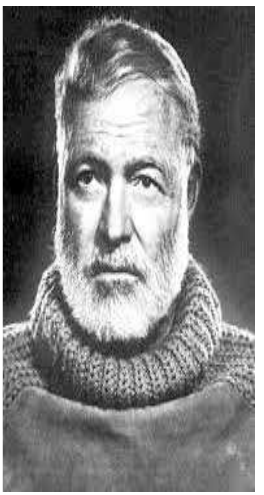

ارنست همنجواي

سارتر

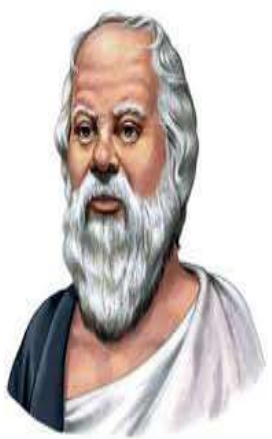

سقراط

أحمد شوقي

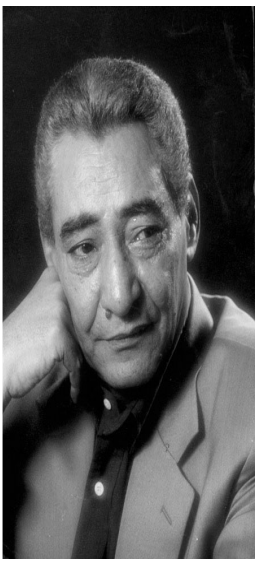

عبد الرحمن الأبنودي

عبد الرحمن الشرقاوى

محمد عبده

أنيس منصور

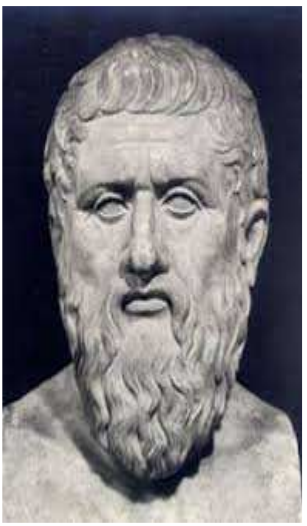

افلاطون

الرئيس جمال عبد الناصر

الرئيس محمد أنور السادات

الرئيس محمد حسني مبارك

عبد الحليم حافظ

فريد الأطرش

محمد عبد الوهاب

المقريزي

إبراهيم عبد القادر المازني

توفيق الحكيم

عباس محمود العقاد

أم كلثوم

ذكي نجيب محمود

مؤلفات علي عبد الفتاح

– الصعاليك ينفجرون بالغناء.
(مقالات تحليلية لإبداع مجموعة من الشعراء العرب)
– الغربة والإبداع. (شهادات المبـــدعين في الغربة).
– العصفور والسنبلة. (تحليل لقصائد الشاعر محمد يوسف وسيرة لحياته).
– عشاق الحزن الجميل. (تحليل لسمة الحزن في تحفيز الإبداع).
– للحب والجمال والحرية مواقف أدبية. (مقالات نقدية).
– العدواني في عيون معاصريه.
(مقالات عن الشاعر الكويتي أحمد مشاري العدواني).
– العدواني وثائق وصور. (تسجيل لرحلة الشاعر أحمد العدواني بالصور).
– حمامة بيضاء. (قصص علمية للأطفال).
– الصوت الهامس. (كتابات نثرية).
– حبيبتي أنتِ. (كتابات نثرية).
– تأملات في قصائد الغزل. (أشعار نزار قباني وفاروق جويدة وغيرهم).
– الفراشة عاشقة الضوء.
(دراسة نقدية في قصص الأديبة الكويتية ليلى محمد صالح).
– المبحرون في التراث. (دراسة في أدب د.عادل عبد المغني).

– تأملات في أدب يحيى الربيعان. (دراسة في أدب يحيي الربيعان).

– أعلام المبدعين من علماء العرب والمسلمين.

(تراجم لأكثر من ٥٠٠ شخصية مبدعة في مجالات المعرفة).

– مشاهير الصحابة. (تراجم لحوالي مائة شخصية من الصحابة).

– نساء في حياة الرسول. (تراجم لحوالي ١٠٠ شخصية نسائية).

– شخصيات أدبية. (تراجم لأكثر من ٣٠٠ شخصية أدبية).

– أعلام في الأدب العالمي. (تراجم لأكثر من ١٢٠ شخصية أجنبية).

– الغاضبون في الأدب. (دراسات أدبية لسمة الغضب وعلاقتها بالإبداع).

– عالم البراءة (قصص قصيرة).

– يوميات. (قصص قصيرة عن عالم المدرسة وقضايا التعليم).

– التحدي. (نص مسرحي مستوحى من حياة عباس محمود العقاد).

تحت الطبع:

– شعراء من إسرائيل. (تصوير الوجه البشع في الشعر الإسرائيلي)

– محاكمة محمد علي باشا (نص مسرحي).

– هؤلاء عاشوا في وجداني.

(تجربة الكاتب مع شخصيات أدبية وعلمية تأثر بها وتعلم منهم فن الحياة).

– من اغتال هؤلاء؟

(كتاب يستعرض شخصيات علمية وأدبية تم اغتيالها لأسباب كثيرة ومازال القاتل هاربا).